طقوس الاستمطار في الشعر الجاهلي

أ.د أحمد موساوي
أ.عباسية بن سعيد
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)

الملخص:

لمّا كان المطر أحد الظواهر الطبيعية بالغة الأهمية في حياة الإنسان إن لم يكن أحد المحاور الرئيسية التي تدور حولها تلك الحياة ، فقد كان من الضروري أن يتوجّه الإنسان بالعبادة و الشعائر نحو الآلهة المتحكّمة في تلك الظاهرة . و نظرا للبيئة الصحراوية التي عاش فيها العرب و عدم وجود الماء في أكثر أنحاء جزيرة العرب مع إنحباس الغيث ، كان ذلك سببا في التأثير على حياة أهلها ممّا دفعهم إلى القيام بطقوس خاصة لغرض الاستسقاء.

الكلمات المفتاحية : المطر ،النوء ، الكواكب ، الأساطير ، المعتقدات .

Summary:

Since it was the rain was one of natural phenomena of great importance in human life, if not one of the main axes that revolve around that life. It was essential that human orientation in worship and rituals towards the Gods controlling this phenomenon and because of the desert environment in which Arabs lived and the lack of water in most parts of the Arabian Peninsula with rain’s entrapment was the cause of the impact on the lives of its people, prompting them to do special rituals for the purpose of rainmaking.

مقدّمة:

من المعروف أنَ البيئة الطبيعية لجزيرة العرب هي بيئة صحراوية جافَة ، ذلك أنَه على الرَغم من كون البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، إلاَ أنَ هذه المساحات المائية لم تستطع التقليل من حدّة ارتفاع الحرارة في تلك الأجزاء الواسعة النادرة الأمطار ، فلم تنتفع بها الأرض و لا الدواب و لا الإنسان. و بالتالي أدَت ندرة المياه إلى تمييز المجتمع الجاهلي بالتنقل و عدم الاستقرار بحثا عن مواقع الغيث و منابت الكلأ ، ممَا أدَى في حالات كثيرة إلى نشوب صراعات و حروب بين القبائل العربية بسبب استحواذ إحداها على بقعة مائية ، فكثر الغزو و الإغارة خاصة في مواسم الجفاف الذي يصيب جزيرة العرب بصورة دائمة.

1ــ صورة المطر في الشعر الجاهلي:

أصبح المطر عند العرب غيثا و وحيا و رحمة ، و هي ألفاظ تحمل آثارا من ذلك الإحساس العميق بالفرحة و الرّضا و الحياة ،الذي كان يملأ عليهم نفوسهم أمام المطر. و لذلك لم يكن غريبا أن يكون وصف المطر موضوعا جلاّبا و من أبرز موضوعات الشعر الجاهلي[1]. فهاهو أبو ذؤيب الهذلي يصف ماءً أُتي به من الطبيعة النقية ، من ماء غدير في أرض قفر تَشكَّل في سحاب تدفعه الرّياح إلى أن أصبح مطرا ينزل في بيئة الشاعر نقيا صافيا ، إذ يقول[2]:

وَ لاَ مُتَحَيـِّرٌ بـَاتَتْ عَلَيْهِ ببِلْقَعَةٍ يَمَانِيَةٌ تَفـُوحُ
خِلاَفَ مُصَابِ بَارِقَةٍ هَطُولٍ مُخَالِطِ مَائِهَا خَصَرٌ و رِيحُ[3]

حيث نجده يصف المراحل الطبيعية لتشكّل المطر، و يطيل في تفسيرها بهدف إظهار نقاء الماء الذي سوف تمزج خمرته بها و يُعتبر ذلك من مظاهر التفاخر و الترفّع . و قد تتكرّر هذه الصورة في شعر الجاهليين ، بحيث نلمس تتبّع عدد من الشعراء لنزول المطر، فراقبوه و وصفوا سحبه و رياحه على تنوّعها و برقه و رعده[4]. فمثلا نجد أبا ذؤيب الهذلي يعطي لنا صورة تفصيلية للطبيعة فيقول[5]:

إذا كان عامٌ مانعُ القَطْرِ ريحُهُ صَبا و شَمَـالٌ قُرَّةٌ و دَبُـورُ
و صُرادُ غيم لاَ يـزالُ كَأَنَّهُ مُلاءٌ بأَشْـرافِ الجِبَـالِ مَكُورُ
طَخَاءٌ يُبَارِي الرِّيـحَ لاَ مَاء تَحْتَهُ لَـهُ سَنَنٌ يَغْشَى البلاَدَ طحُورُ

فالشاعر يصوّر لنا مظهر الشتاء الجاف في بلاد العرب وهو ينظر إلى موفد السحب التي تكون عادة مثقلة بالمطر، تبدو خاوية تلف الجبال كالعمائم على رؤوس الرجال تسوقها الرياح[6] رياح جدب و برد. و نجد امرئ القيس يصف لنا في معلقته مطرا تحوّل إلى سيل جارف حدث بالقرب من تيماء حيث كانت تقيم قبيلة بني أسد فيقول[7]:

كَـأَنّ ثبِيرًا في عَرَانِـي وَبْلِهِ كَبيـرُ أنَاسٍ في بـجَادِ مُزَمَّلِ[8]

فالشاعر يشبّه ثبيرا في أوائل المطر الغزير العظيم القطر كسيد أناس قد تلفف بكساء مخطط. بحيث غطى الجبل الغثاء بما جاء به السيل من حشيش و شجر و تراب و غير ذلك كما تغطّى الرجل بالبجاد. كما استعار الشاعر العرانين لأوائل المطر لأنّ الأنوف تتقدّم الوجوه. و قال أيضا في أثر السيل على الأرض في إحيائها[9]:

وَ أَلْقَـى بِصَحْرَاءِ الغَبِيطِ بَـعَاعَهُ نُزُولَ اليَمَانِيِّ ذِي العُيابِ المُحَمَّلِ[10]

فالشاعر هنا شبّه نزول المطر بقدوم التاجر اليماني صاحب العياب المحمّل من الثياب ، و شبّه ضروب النبات الناشئة منه بصنوف الثياب التي نشرها التاجر عند عرضها للبيع. و يمكّننا ذلك من تخيّل الألوان الزاهية التي تلوّنت بها الأرض بعد نزول المطر .كما تتكرّر في الشعر الجاهلي صورة الشاعر وهو ساهر يرقب البرق و غيره نيام كقول عبيد بن الأبرص[11]:

يَا مِنْ لِبَرْقٍ أَبِيـتُ اللَّيْلَ أرْقُبهُ مِنْ عَارِضٍ كَبَيَاضِ الصُّبْحِ لَمَّاحِ[12]

فالشاعر رسم صورة رائعة لهذا المنظر الطبيعي الذي قد يكون مخيفا للبعض. بالإضافة إلى أنّنا نجد وصفا فيه رمزية لنفسية الشاعر الذي يسقط على هذا المنظر همومه و آلامه ، خاصة إذا ارتبط في القصيدة وصف اللّيل بمطره و رعده و برقه و سهر الشاعر العاشق الحزين على فراق محبوبته. و كثيرا ما نجد هذا المنظر الدرامي يتكرر في

الشعر الجاهلي حيث تقترن أيضا صورة المطر بالطلل ، حيث يركزّ فيها الشاعر على الدعاء بالاستسقاء لديار المحبوبة، كما فعل طرفة بن العبد لمّا دعا لديار خولة بالسقيا من مطر ربعيّ و صيفيّ أدرّته ريح الجنوب مع رعد صوته كالزجل ، في قوله[13]:

لِخَوْلَةَ بِالأَجْزَاعِ مِنْ إضَمٍ طَلَلْ   و بالسَّفْحِ مِنْ قَوٍّ مُقَامٌ و مُحْتَمَلْ
تَتَرَبَّعُهُ، مِرْبَاعُهَا و مَصِيفُهَا   مِيَاهٌ مِنَ الأشرافِ يُرْمَى بِهَا الحَجَلْ
فَلاَ زَالَ غَيْثٌ مِنْ رَبِيعٍ وَ صَيْفٍ   عَلَى دَارِهَا، حيثُ إستقرَّتْ لَهُ زَجَلْ
مَرَتْهُ الجَنُوبُ ثمّ هُبَّتْ لَهُ الصَّبَا   إِذَا مَسَّ، مِنْهَا مَسْكَنًا، عُدْمُلٌ نَزَلْ
كَأَنَّ الخَلاَيَا فيه ضَلَّتْ رِبَاعُهَا   وَعُوذًا إِذَا مَا هَدَّهُ رَعْدُه احْتَفَلْ [14]

كما ذكر الشعراء المطر في مواضع أخرى ، منها اقترانه بصورة الثور الوحشي الذي غالبا ما نراه يرعى الكلأ منفردا وحيدا فيصيبه نوء الجوزاء ، و يلجئه قطرها و بردها و ريحها شجرة أرطأة ، فيلوذ بها مستضيفا ، و يقضي في كنفها ليلة رجبية شهباء حتّى تنجلي الظّلماء [15].و قد تحلّ البقرة الوحشية أو الحمار الوحشي محلّ الثور ، و تظلّ خطوط الصورة كما هي رغم تغيّر بطل الملحمة التي يتصارع فيها هذا الحيوان مع الصياد أو مع الكلاب التي تطارده.و إذا استعرضنا شعر بشر بن أبي خازم و زهير بن أبي سلمى و أبو ذؤيب الهذلي على سبيل الأمثلة لوجدنا صورة الثور الوحشي تتكرر بكل عناصرها و بخاصة وصف الطبيعة الماطرة في ليلة ظلماء و احتماءه بالأرطأة ثم تصويره و هو خارج من تحت هذه الشجرة عند بزوغ الشمس ، متأهبا للقراع.
و خير مثال اخترناه شعر للنابغة الذبياني[16]:

بَاتَتْ لَهُ لَيْلَةُ شَهْبَاءُ تَسْفَعُهُ   بِحَاصِبٍ ذَاتُ إِشْعَانٍ و أَمْطَارِ
و بَاتَ ضَيْفًا لِأَرْطَاةٍ، و أَلْجَأَهُ   مع الظَّلاَمِ إِلَيْهَا وَابِلٌ سَارِي
حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَتْ ظَلْمَاءُ لَيْلَتِهِ   وَ أَسْفَرَ الصُّبْحُ عَنْهُ، أيّ إِسْفَارِ
أَهْوَى لَهُ قَانِصٌ يَسْعَى بِأَكْلُبِهِ   عَارِي الأَشَاجِعِ مِنْ قَنَاصِ أَنْمَارِ

فالطبيعة في هذه الأبيات غاضبة بجوّها الغائم الماطر و برقها الذي يلمع و يخبو و ريح ثائرة تسفع الثور بالحصى، لذلك يلجأ إلى شجرة الأرطي لظخامتها. فيقضي الليلة إلى جوارها محتميا من البرد حتى يسفر الصباح فتهاجمه الكلاب. و قد يرى بعض الدارسين أن لتكرار هذا المشهد بنفس تفاصيله دلالة على رمزية معيّنة و هي في الغالب "صورة يجسّد عن طريقها الشاعر هذه المواجهة الدّائمة بينه و بين ظروف الحياة من حوله. و ما الصراع الموجود بالصّورة إلاَّ صراع من أجل الطّعام و الماء. و هذه نزعة عقلية أو منطقية غالبة تظهر من خلال الصور الجزئية التي تتظامّ لتكوّن هذا البناء المتكامل أو الصورة الكليّة"[17]. إلاّ أنّ د. علي البطل يرى أنّ لهذه الصورة دلالة ميثو دينية ، فهي ترمز لعبادة قديمة عند الساميين و هي عبادة القمر و الذي يمثله الثور[18].

و حسب رأيه أن هذا المعتقد قد ترسّخ في اللاشعور الجمعي ، مما جعل الشاعر يمثّل لهذا الصراع السماوي أي بين الإله القمر و عدوان الظواهر الطبيعية الشريرة عليه و صراع الثور رمز القمر و الطبيعة الغاضبة و الكلاب ، ممّا دفعه إلى تخيل هذا المنظر الملحمي. و كنقد لهذه النظرية نذكر قول وهب أحمد رومية -والّذي نشاطره الرأي- حيث قال: " لقد أسرف د. البطل على نفسه و ألزمها ما ليس يلزمها ، فإذا هو يعلّل أمورا غائبة من النصوص الشعرية ليثبت بتعليله أمورا غائبة من الحياة الدينية "[19].

2 ــ طقوس الاستمطار في الشعر الجاهلي:

إنّ اهتمام العرب بالمطر و تعلّقهم بالسماء جعلهم يعتقدون أنّ للنّجوم دورا في نزول الغيث أو امتناعه . فجعلوه فعلا للكواكب و حادثا عنها. فقالوا : " أنّ لا بدّ لكلّ كوكب من مطر أو ريح أو برد أو حرّ ، و إذا مضت مدّة النّوء [20]، و لم يكن فيها مطر قيل أخوى نجم كذا"[21].

قال ابن سيدة:" و إنما جاء حمدكم بعض الأنواء و ذمّهم بعضا من قبل مواقع الأمطار الّتي تكون في أيّامها، فأيّ كوكب جاء وقت نوئه فصادف المطر الذي يكون فيه من الزمان و من البلد موافقة و نجع ، فتبيّن خيره و نفعه حمدوا ذلك النّوء، و أضافوا حمده إلى الكواكب و نوّهوا به، و إلاّ يكن ذلك ذمّوه و سمّوا نوءه به، حتى كان الفعل في ذلك فعل الكواكب. و لمّا جرّبوا هذه الأمور في القديم ، و طال اختبارهم لها فوجودها ثابتة في مراتبها، ألزموا الكواكب ذلك"[22].

قد يرجع بعض الدارسين مورد هذا الاعتقاد إلى أصول دينية بابلية ، إذ أنّهم آمنوا بأن للكواكب الدّور الأوّل في تقرير مصير الناس و التحكم في حياتهم و رزقهم و بالتالي إرسال الغيث[23]. غير أنّ الجاحظ يبيّن أنّ غرض العرب من علم الأنواء لم يكن في أوّل الأمر إلاّ لمعرفة أوقات المطر و الاهتداء بسير النجوم في أسفارهم إذ يقول ضمن حديثه عن الأعراب :" عرفوا الأنواء و نجوم الاهتداء ، لأنّ كل من كان بالصحاصح الأماليس ، حيث لا أمارة و لا هادي مع حاجته إلى بُعد الشقة ، مضطرّ إلى التماس ما ينجيه و يؤدّيه ، و لحاجته إلى الغيث و فراره من الجدب ، و ضنّه بالحياة ، اضطرّته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، و لأنه في كل حال يرى السماء و ما يجري فيها من الكواكب ، و يرى التعاقب بينها و النجوم الثوابت فيها ، و ما يسير منها مجتمعا ، و ما يسير منها فاردا و ما يكون منها راجعا و مستقيما "[24]. و قد ربط الأسود بن يعفر بين يوم مولده و ما فيه من أنواء بقوله[25]:

وُلِدْتُ بِحَادِي النّجم يتلو قرينه   و بالقلب قلب العقرب المتوقّد

و لاعتقاد العرب أن النجوم مقترنة بنزول المطر أو انقباضه قسّموها إلى نوعين النحوس و السعود ، كقول عبيد بن الأبرص[26]:

وَ لَتَأْتِيَنْ بَعْدِي قُرُونٌ جَمَّةٌ   تَرْعَى مَخَـارِمَ أَيْكَةٍ وَلَـدُودَا
وَ الشَّمْسُ طَالِعَةٌ وَ لَيْلٌ كَاسِفٌ   وَ النَّجْمُ تَجْرِي أَنْحُسًا وَ سُعُودَا

و ضمن هذا البيت الحكمي الذي يعبّر فيه الشاعر عن تجربته و معايشته لأحداث كثيرة يذكر فكرة نحوس النجوم و سعودها. و الأنواء المحمودة[27] حمدت لغزارة أمطارها و طيب هواءها و كثرة خيراتها، أمّا الأنواء المذمومة [28] التي عُدّت منحوسة فلعقمها و شدّة بردها و قلّة مطرها. فمن بين النجوم التي تفاعل بها العرب لأنّ نوءها كان دليلا على نزول المطر هي الثريا، يذكرها عدي بن زيد في قوله[29]:

يَجِيءُ بِمَا أَمَدَّتْهُ الثُرَيَّا   مُعِيرًا أَمْرُهُ دَرَرَ الجنُوبِ

فالشاعر ينهج منهج الجاهلية في تعليل المطر و اقترانه بنوء الثريا. ولأنّها كانت مصدر الخير و الثراء و الجمال[30]دفع هذا الشعراء إلى ذكر الثريا في مجال التشبيب بالحبيبة، كقول قيس بن الخطيم و الذي أنزل الثريا من فوقيتها و صاغها عقدا على نحر حبيبته ليستمتع بالضّوء في الليلة الظلماء:

وَ كَأَنَّ الثُرَيَّا فَوْقَ ثَغْرَةِ نَحْرِهَا   تُوقَدُ فِي الظَّلْمَاءِ أَيَّ تَوَقُّدِ

فاستعار الشاعر ضياء و نور الثريا ليصف جمال و بياض بشرة حبيبته و لشدّة تعلّق العرب بجَمال الثريا نجدهم نسجوا حولها أسطورة خطبة الدبران لها[31]. و الدبران يعتبر من الأنواء التي تجرّ الشؤم و النحس لأنّهـم لا يمطـرون بنوءه فيشتدّ الحرّ و تهبّ السمائم (الرياح الحارّة) ،حيث ضُرب به المثل فقالوا :" أشأم من حادي النّجم ".

و مع مجيء الإسلام الذي نهى عن الاعتقاد في الأنواء [32]، أدّى ذلك إلى ضياع مخـزون كبيـر مـن الشـعر الجاهلي الذي يعرّفنا على جوانب عديدة من المعتقدات التي لها علاقة بالنجوم. فالأصمعي كـان لا ينشـد و لا يفسّـر الشّعر الذي فيه ذكر الأنواء.

و من الطقوس التي كانت العرب تقوم بها عند انحباس المطر نار الاستسقاء ، يقول في تعريفها النويري:" كانوا في الجاهلية الأولى إذا تتابعت عليهم الأزمات و اشتدّ الجدب و احتاجوا إلى الأمطار، يجمعون لها بقرا معلقة في أذنابها و عراقيبها السلع و العشر [33]، و يصعدون بها إلى جبل وعر و يشعلون فيها النيران قبل المغرب و يضجون بالدعاء و التضرّع ، و كانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصل بها إلى نزول الغيث "[34].و قد وصف أمية بن أبي الصـلت هـذا الطقس في شعره [35]:

سَنَــةٌ أزْمَةٌ تُخَيِّل بــالنَّا   سِ ترى لِلْعضَاهِ فِيها صَرِيرَا
لاَ عَلَى كَوْكَبٍ يَنُوءُ وَ لاَ رِي   حِ جَنُوبٍ وَ لاَ تَرَى طُخْرُورا
وَ يَسُوقُونَ بَاقِرَ السَّهْلِ لِلطَّوْ   دِ مَهَازِيلَ خَشْيَةَ أَنْ تَبُورا
عَاقِدِينَ النِّيرَانَ فِي شُكْرِ الأَذْ   نَابِ عَمْدًا كَيْمَا تَهِيجَ البُحُورَا
سَلَــعٌ و مَا مِثْلُهُ عُشَرٌ مَا   عَائِلٌ ما وَعَالَتْ البيْقُــورَا[36]

و القصيدة طويلة يصف فيها الشاعر حالة الأبقار و هي تشتوي بالنار التي تلفّها فنزلت عليها رحمـة مـن الله فأغاثها بالمطر كي ينقص ألمها فهذه الأبيات جاءت في ذمّ هذا الطقس الذي يفتقد إلى الرأفة و الإنسـانية. و قـد علّل جواد علي السبب في إضرام النيران في أذناب البقر، بأنّ ذلك إنّما فعلوه على سبيل التفاؤل ، فالنـار إشـارة إلـى البرق و البرق مجلبة للمطر[37]. أي أن هذا الطقس يعتبر تمثيلا أو محاكاة للظاهر الطبيعية بكلّ تفاصيلها[38]، بحيث يمثّل الدخان تراكم السحب و ألسنة النار تمثل البرق.

إضافة إلى ذلك ـــــ حسب ما ذكره الدميري ـــــ أنّهم كانوا يسوقون الأبقـار بإتّجـاه المغـرب مـن دون الجهات الأخرى[39]. قد يؤولنا هذا التحديد للاتجاه إلى وجود علاقة رمزية لاعتقاد العرب بنوء النجوم نحو المغرب. مما جعلهم يدفعون الأبقار بنفس الاتّجاه آملين أن يكون لذلك أثر بإنزال الأمطار. و قد يكون هذا الطقس من مظاهر الفـداء في المجتمع الجاهلي ، حيث يرى علي البطل أنّ هذا الطقس وسيلة سحرية دينية للاستمطار و مـا نـزول المطـر إلاّ استجابة للصلاة و البقر و الثيران الوحشية هي واسطة إلاهية تتأذى في هذا الطقس[40].

إلاّ أننا نجد عددا من الشعراء سخروا من هذه الظاهرة و عابوا على العرب فعلهم حيث قال وداك الطائي[41]:

لاَ دَرَّ دَرُّ أُنَاسٍ خَابَ سَعْيُهُـــمْ   يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الإعْسَارِ بالعُشْرِ[42]
أَجَاعِلٌ أَنْتَ بيْقُورَا مُسَلَّعَــــةً   ذَرِيعَــةً لك بين اللهِ و المَطَرِ

و قال أعرابي[43]:

شَفَعْنَا بِبَيْقُورَ إِلَى هَاطِلِ الحَيَا   فَلَمْ يُغْنِ عَنَّا ذَاكَ بَلْ زَادَنَا جَدْبَـــا
فَعُدْنَـــا إِلَى رَبِّ الحَيَــا فَأَجَــارَنَا   وَ صَيَّرَ جَدْبَ الأَرْضِ مِنْ عِنْدِهِ خِصْبَا

ففي هذه الأبيات نجد ما يدلّنا على أنّ العرب اعتقدوا في إلاه أكبر هو الله الذي ينزل عليهم الأمطار أو يـدفعها عنهم فتجدب الأرض ، و ما قيام بعضهم ـــــ الأعراب ـــــ بطقوس الاستمطار إلاّ محاكاة لما تقوم به الطبيعـة و الدليل على ذلك وجود طقس سحري آخر يذكره المقريزي لمنع سقوط المطر .حيث كان شائعا في بعض قبائل البدو في حضرموت و هي قبيلة "القمر" فقد كان الناس هناك يقطعون غصن شجرة معينة في الصحراء ، و يشعلون فيه النار ثم يرشون الماء بعد ذلك على الخشب المشتعل ، فيقلّ هبوط المطر حتّى يتوقّف تماما مثلما تختفي المياه التي تُرشّ علـى الخشب المتوهّج[44].

و يبدو أنّ للنار مكانة مرموقة في المعتقدات الجاهلية إذ أنّ الطقوس التي استعملت فيها كثيـرة. ربّمـا لأنهـم اعتقدوا أنّ فيها قوة سحرية مما دفعهم إلى تقديسها. و في تحليل د. محمد عجينة فالنار تستعمل إمّا علامة من العلامات يقصدون بها إلى معنى مباشر متواضع عليه فتكون بمثابة الإشارة أو تكون ضمن الشعائر و الطقـوس رمـزا مـثقلا بالمعاني و الدلالات[45]. نذكر منها نار المزدلفة التي توقد في موسم الحج و نار الأهبة للحرب و نار الاسـتمطار و نار الحلف[46].

و من طقوس الاستمطار عند العرب اللجوء إلى بيت الله الحرام لقدسيته. حيث كانوا إذا أجهدهم القحط يفزعون إلى البيت الحرام يدعون الله أن يغيثهم. فمن القصص التي رواها وهب بن منبه قصّة قوم عاد الذين ابتلاهم الله بالقحط ثلاث سنين فأجمعوا أمرهم على المسير إلى بيت الله الحرام يستسقون الغيث. فجهزوا من عظمـائهم و أشـرافهم سبعين رجلا و منهم لقمان بن عاد الذي لاذ بالكعبة يدعو و يتضرّع فأرسل الله تعالى على قومه سحابة سوداء عُقمـت من الرحمة و لقحت بالعذاب بريح صرصر عاتية[47]. كما تحدّث الجاحظ عن وسيلة سـحرية لنـزول المطـر كانـت موجودة عند العرب و هي غسل الثياب و دلّ على ذلك ما جاء في أبيات رواها عن "سعد المطر" قال فيها[48]:

دَعْ المَوَاعِيـدَ لاَ تَعْرَضْ لِوُجْهَتِهَا إِنَّ المَوَاعِيدَ مَقْرُونٌ بِهَا المَطَرُ
إِنَّ المَوَاعِيدَ و الأَعْيَـادَ قد مُنِينَا مِنْهُ بأَنْكَرِ مَا يُمْنَى بِهِ بَشَرُ
أَمَّا الثِّيَابُ فَلاَ يَغْرُرْكَ إِنْ غُسِلَتْ صَحْوٌ قَدِيم و لاَ شَمْسُ و لاَ قَمَرُ

فالشاعر يذكر طقس غسل الثياب من أجل الاستسقاء في مجال التهكم و السخرية فهو ينفي أن يكون له أثر فـي نزول المطر مثله مثل الاعتقاد في الأنواء فالمواعيد يقصد بها مواقيت نوء النجوم .إلاّ أنه بنظرة تشاؤمية يـرى أنّهـم ابتلوا بالأنواء النحوس فلا فائدة ترجى من غسل الثياب. كما انتشر في الشعر الجاهلي ظاهرة الاستسقاء بالأفراد حيـث يعتقد أنّ لهم قوى روحية و قدرات سحرية على استنزال المطر و يظهر ذلك خاصة في مدح الملوك والكهّـان، ومنـه قول النابغة يمدح أحد ملوك آل جفنة[49] :

جَرَبْتُ أَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِهِ مِنْ آلِ جَفْنَةَ في عِزّ و فـي كَرَمِ

و قال الأعشى في هوذة بن علي الحنفي[50]:

أَغَرُّ أَبْلَجُ يُسْتَسْقَـى الغَمَامُ بِهِ لَوْ صَارَعَ النَّاسَ عَنْ أَحْلاَمِهِمْ صَرَعَا

كما كان يستسقى بالرّضيع مثلما فعل أبو طالب حينما أصاب مكة جدب عظيم و أمسك السحاب عـنهم سـنتين. حيث وضعه على يديه و استقبل الكعبة و رماه إلى السماء ، و قال : يا ربّ بحقّ هذا الغلام و رماه ثانيا و ثالثا و كان يقول : بحقّ هذا الغلام اسقنا غيثا مغيثا دائما هاطلا ، فلم يلبث ساعة أن طبق السحاب وجه السماء و أمطـر ، حتـى

خافوا على المسجد[51]. و هذه القصة فيها دلالة على لجوء العرب إلى ربّ البيت للاستسقاء و اتّخاذ الرضيع وسيلة للاستعطاف و طلب الرحمة.

و من المعتقدات التي لها علاقة بالاستمطار و تكرّرت في الشعر الجاهلي الدّعاء بسقيا القبور ، و يرجعها أحد الدارسين[52] إلى بقايا تراث ديني قديم كان أصلا طقسا سحريا يمارس على عظام الموتى التي استخدمها العرب في استدعاء المطر. غير أن هذا التعليل يبدو لنا ضعيفا و الأرجح أنهم كانوا يعتقدون أنّ الموتى يمارسون حياة عادية في القبر فيعطشون و يشربون و هي وسيلة لإرضاء الهامة و الصدى فتهدأ الروح الهائمة. و مثل ذلك ظاهرة نضح القبر بالخمر فهي في نظرهم قد تمس الميت بجزء من هذه اللذّة الّتي استمتع بها في حياته .كقول حاتم الطائي[53]:

أَمَــاوِيُّ إِنْ يُصْبِحْ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ مِنَ الأَرْضِ لاَ مَاءُ لَدَيَّ وَ لاَ خَمْرُ
تَرَى أَنَّ مَا أَهْلَكتُ لَمْ يَكُ ضَرَّنِي وَ أَنَّ يَدَيَّ مِمَّا بَخِلْتُ بِهِ صِفْرُ

و كقول الخنساء ترثي صخرا[54]:

سَقَى الإِلَهُ ضَرِيحًا جَنَّ أَعْظُمَهُ وَ رُوحَهُ بِغَزِيرِ المُزْنِ هَطَّـالِ

و قالت أيضا[55]:

أَسْقَى بِلاَدًا ضُمِّنَتْ قَبْرَهُ صَوْبَ مَرَابِيعِ الغُيُوثِ السَّوَارْ
وَ مَا سُؤَالِي ذَاكَ إِلاَّ لِكَي يُسْقَاهُ هام بالرَوِيّ في القِفَارْ

فالخنساء تدعوا الغيث أن يتوجّه للبلاد التي تضم قبر أخيها ، عسى أن يلحقه جانب من هذا الماء الذي يروي هامه . و الدعاء بالسقيا في المرثية العربية رمز من رموز تهدئة الروح التي تطالب بالثأر ـــ حسب اعتقاداتهم ـــ أن الهام تصيح اللّيل : أسقوني...وقد بقيت هذه العادة –سكب الماء على القبر - في المجتمع العربي إلى يومنا هذا رغم تغيّر المعتقد .

و من ذلك نخلص إلى أنّ المطر في الفكر الجاهلي حدث مهمّ ، بواسطته تعود الحياة إلى الأرض و انعدامه يعرّضهم للقحط و المجاعات. ممّا دفعهم و هم في حالة من الأمل و الدعاء إلى نسج طقوس للاستسقاء منها ما تعلّق بالاعتقاد بالنجوم و نوءها. كما استعملوا النار و البقر الوحشي في محاكاة نزول الغيث ، و غسل الثياب و الاستسقاء بالأفراد ملوكا أو كهنة أو رضّعا. فالاستسقاء فيهم من زمن قديم و هو من بقايا الشرائع السماوية ، خاصة استسقائهم بالأماكن المقدّسة طمعا في إجابة الدعاء.

الإحالات :

[1]. د. يوسف خليف: مقدمة القصيدة الجاهلية، محاولة جديدة لتفسيرها، المجلة، القاهرة، السنة التاسعة ع 98، 1965، ص 16-17. عن عماد علي الخطيب: الصورة الفنية أسطوريا ،جهينة للنّشر و التّوزيع ،الأردن 2006 ، ص 307 ــ

[2]. السكري , أبو سعيد الحسن : شرح أشعار الهذليين , حققّه عبد الستار أحمد فرّاج , راجعه محمود محمّد شاكر, مكتبة دار العروبة القاهرة مصر، ص 173 و ديوان الهذليين ج 1 ص 69و 70.

[3]. المتحيّر : الماء قد تحيّر من كثرته فليس له جهة يمضي فيها ،خلاف : بعد ، البارقة : السحابة التي فيها برق. الخَصَر : البرد

[4]. أنظر ديوان الهذليين ج 1 ص 50 ← 56.

[5].د. نصرت عبد الرحمن: الواقع و الأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي ،دار الفكر للنشر و التوزيع عمان الأردن ،1985، ص 26.

[6]. أنواع الرياح : رياح الجدب : الصبا و هي ريح شرقية باردة ، الدّبور : ريح غربية ، بالإضافة إلى ريح الشمال الباردة. أمّا الرياح التي تجلب الغيث فهي رياح الجنوب و هي رياح ماطرة و يطلق عليها النُّعَامي.

[7]. امرؤ القيس: المعلقة من الديوان شرحه عبد الرّحمان المصطاوي , دار المعرفة بيروت لبنان , الطبعة الثانية , 2004 ،ص 67.

[8]. ثبيرا: جبل من أعظم جبال مكة. العرنين: الأنف. البجاد: كساء مخطط. التزميل: التلفيف. الوابل: هم المطر الغزير العظيم القطر.

[9].المصدر نفسه ص 68 .

[10]. الغبيط : أكمة قد انخفض وسطها و ارتفع طرفاها ، و سمّيت غبيطا تشبيها بغبيط البعير . البعاع: الثقل. العياب: جمع عيبة و العيبة وعاء من جلد توضع فيه الثياب.

[11]. عبيد بن الأبرص : الديوان شرحه أشرف أحمد عدرة , دار الكتاب العربي بيروت لبنان , الطبعة الأولى , 1994 ،ص 45 .

[12]. العارض : السحاب المعترض في السماء. لمّاح : لمّاع لشدّة بياضه. معناه : يصف لمع البرق في الليل و السحاب الأبيض كبياض من الصبح.

[13].طرفة بن العبد : الديوان ،شرحه محدي محمّد ناصر الدّين, دار الكتب العلمية بيروت لبنان, الطبعة الثالثة , 2002، ص 61 .

[14]. الأجزاع: مفردها الجزع و هو المسافة التي تقطعها من الوادي. إضم : إسم واد. قو: واد أيضا. المقام: محلّ الإقامة. تربعه: تنزل به في الربيع. المرباع : المكان التي أقامت به في الربيع و المصيف. مرته : إحتلبته في المعتقدات العربية أن السحاب ضرع السماء تحتلبه ريح الجنوب.العُدمل: السحاب الكثيف. الخلايا: النياق المسنّة. الرباع: الإبل التي وُلدت في الربيع. العوذ: النياق الحديثة السنّ. إحتفل: هطل مطره بشدّة.

[15]. عماد علي خطيب: الصورة الفنية أسطوريا ص 198

[16]. أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ، دار المسيرة ، بيروت لبنان ،1978 ، ص 81.

[17].المرجع السابق ص 195.

[18]. راجع الفكرة مفصّلة في كتاب د. علي البطل: الصورة الفنية في الشعر العربي ص 130.

[19]. د. وهب أحمد رومية: شعرنا القديم و النقد الجديد، عالم المعرفة. الكويت 1996 ــ ص 62 ــ

[20]. النوء: نوء النّجم هو أوّل سقوط يدركه بالغداة و يكون جهة المغرب و ذلك في بياض الفجر، و طلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق. و الأنواء ثمان و عشرون منزلة يذكرها مجد الدين الجزري: في كتابه النهاية في غريب الحديث والأثر ج 5 ص 122.

[21].أنظر ابن قتيبة :كتاب الأنواء في مواسم العرب ، طبع حيدر آباد، الدكن الند 1956 ،ص 7.

[22].ابن سيدة : المخصص (كتاب الأنواء) ص 82.

[23]. ففي حضارة سبأ القديمة كانوا يقدّمون لكوكب الزهرة (عثتر) كثيرا من القرابين من أجل الاستسقاء .

[24].الجاحظ : الحيوان ،وضع حواشيه محمّد باسل عيون السّود منشورات محمّد علي بيضون , دار الكتب العلميّة بيروت لبنان , الطبعة الأولى، 1998 ، ج 6 ،ص 30.

[25]. الأسود بن يعفر النّهشلي : الديوان ، تحقيق نوري القيسي بغداد ، 1970 ،ص 22.

[26]. حادي النجم: هو الدبران و نوءه مذموم قالوا فيه : " إذا طلعت الدبران يبست الغدران و توقّدت الحران و كرهت النيران"

[27].الأنواء المحمودة : كنوء السرطان ، الثريا ، الشعريان ، المرزمان ، السمكان ، نوء الزباني ، الإكليل ، القلب و السعود الأربعة : الذابح و بلع و الأخبية و السعود، و نوء الحوت و الحبهة.

[28]. الأنواء المذمومة : البطين ، الهقعة ، الهتعة او الجوزاء ، و الدبران أو الحدي ، و الزُباني و الإكليل و القلب و الشّولة و هي في برج العقرب. أنظر ابن قتيبة: الأنواء في مواسم العرب ، ص 32.

[29].عدي بن زيد العبادي : الديوان ، حقّقه وجمعه محمّد جبّار المعيبد , طبع وزارة الثقافة والإرشاد بغداد العراق , 1965، ق3 ، ص 38.

[30]. يعتقد اللغويون أن لصفات الكواكب عند العرب أثر في اشتقاق الاسم فمثلا الثريا في نوءها الثروة فاشتقت من الثراء. و اسم الدبران لأنّه استدبر الثريا . و العيوق لأنهّا أعاقت وصول الدبران إلى الثريا و غيرها.

[31]. جاء في الأسطورة : أن القمر خطب الثريا للدبران ، إلاّ أنّها أبت و ولّت و قالت للقمر: ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له. فجمع الدبران قلاصة (مجموعة من النوق دلالة على كواكب صغيرة يتجول بها) و يتبع الثريا حيثما توجّهت كأنه يسوق صداقها قدامه و لهذا سمّي بحادي النّجم.

[32]. جاء في الحديث النبوي الشريف : أربعة في أمّتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن الفخر في الأحساب و الطعن في الأنساب و الاستسقاء بالنجوم و النياحة " عن صحيح مسلم (كتاب الجنائز) ج 2 ص 644.

[33]. السّلع: نبات و قيل شجر مرّ. و العُشر: من كبار شجر العضاه و هو ذو صمغ حلو و حرّاق مثل القطن يقتدح به و هو عريض الورق يخرج من شعبه و مواضع زهره سكر فيه شيء من المرارة ، و يستعمل حطبه للنار. انظر لسان العرب لابن منظور مادة سلع و عشر.

[34]. شهاب الدين النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب. دار الكتب المصرية القاهرة 1932 ، ج 1، ص 110.

[35].أمية بن أبي الصلت : الديوان ، جمعه وحقّقه وشرحه د. سجيع جميل الجبيلي ,دار صادر بيروت لبنان ,الطبعة الأولى ,1998.ص 73 و 74.

[36]. تبرح بالناس : تجهدهم ،الطحرور بالحاء و الخاء : اللطخ من السحاب القليل. الثكن : جمع ثكنة و هي القلادة و الجماعة. الطود: الجبل. تبور : تهلك. شكر الأذناب : شعر الأذناب. باقر و البيقور : جماعة البقر و منه البيقرة : مشية يطأطأ الرجل فيها رأسه.

[37].جواد علي :المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام , دار العلم للملايين بيروت لبنان , الطبعة الأولى ,1970،ج 5 ،ص 341 .

[38]. يسمي فريزر هذه المحاكاة بالسّحر التشاكلي ، أي أنّهم إذا أرادوا مثلا أن يسقط المطر قاموا بمحاكاة سقوطه برش الماء ، أو محاكاة تجمع الغيوم و السحب . أمّا إذا أرادوا إيقافه و إحداث الجدب فإنهم يتفادون الاقتراب من الماء و يعمدون إلى الدّفئ و إلى النار . أنظر جيمس فريزر : الغصن الذهبي ترجمة أحمد أبو زيد و صاحبيه ، مطبعة الثقافة مصر ،1971 ، ج 1 ص 250.

[39]. أنظر كمال الدين الدميري : حياة الحيوان الكبرى ، تحقيق إبراهيم صالح ، دار البشائر للطباعة و النشر و التوزيع دمشق ، ط 1 ،2002 ، ص 8.

[40].علي البطل : الصورة الفنية في الشعر العربي حتّى آخر القرن الثاني الهجري (دراسة في أصولها و تطورها) ، دار الأندلس بيروت لبنان ، الطبعة الثالثة ، 1983 ، ص 131.

[41]. الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، شرح و تصميم و ضبط محمّد بهجة الأثري ،دار الكتب العلميّة بيروت لبنان ،ج 2 ص 302.

[42]. و في الحيوان للجاحظ: يستبدل لفظتي أناس برجال و الإعسار بالأزمات

لاَ دَرَّ دَرُّ رجال خاب سعيهم   يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الأزمات بالعُشر

[43]. الألوسي: بلوغ الأرب ،ج 2 ص 301.

[44].د. أنور أبو سويلم : المطر في الشّعر الجاهلي ، دار الجيل ، ط1 ،1987 ، ص94.

[45]. محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها ,دار الفارابي بيروت لبنان , طبعة جديدة منقحة , 2005 ،ص 206.

[46]. و نيران العرب هي ثلاثة عشر نارا أغلبها لها علاقة بمعتقد معين.

[47]. لمعرفة أحداث القصة بتفصيل أكثر الرجوع إلى كتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه ، مطبعة المعارف العثمانية الهند 1347 ،ص 3. وقد ذكرت قصة قوم عاد في القرآن الكريم في الآية 24 من سورة الأحقاف ،و الغاية منها الاعتبار بقصص الماضين إلاّ أن مخيلة القصّاص ـــــ وهب بن منبه ـــــ قد فعلت فعلها فأضافت أحداثا منها ما تعلّق برغبة لقمان بن عاد في الخلود و قصة الأنسر . ممّا جعل هذه الحقيقة تتحوّل إلى أسطورة خرافية. هذا لا ينفي أنّ البدو و الأعراب كانوا إذا أمسكت السماء ماءها و جفّت الوديان لجؤوا إلى المدن الكبرى و بخاصّة مكّة يتضرعون إلى ربّ البيت رغم وثنيتهم و ما الأصنام إلّا شفعاء لهم إلى الله.

[48]. الجاحظ : البرصان و العرجان ، تحقيق محمد مرسي الخولي. مطبعة الاعتصام القاهرة 1976. ص 85.

[49].النابغة الذبياني : الديوان ، اعتنى بشرحه حمدو طماس , دار المعرفة بيروت لبنان , الطبعة الثانية ,2005 ،ص 201 .

[50].الأعشى : الديوان الكبير ، شرح و تعليق محمّد حسين ، المكتبة الشرقية للنشر و التوزيع بيروت لبنان ، ص 143 .

[51]. يقول أبو طالب عم الرسول (صلع) في قصيدته اللامية:

وَ أَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ   ثِمَـــــالَ اليَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ

يَطِيفُ بِهِ الهَلاَكُ مِنْ آلِ هَاشِمِ   فَهُمْ عِنْدَه في نِعْمَةٍ وَ فَوَاضِلِ

عن نعمان الجارم: أديان العرب في الجاهلية , مطبعة السعادة مصر ,الطبعة الأولى ،ص 78.

[52]. ذكره أنور أبو سويلم في بحثه الاستسقاء في الشعر الجاهلي ، مجلة مؤتة للبحوث و الدراسات العدد الأول ، جامعة مؤتة 1986. عن عماد علي الخطيب : الصورة الفنية أسطوريا ، ص 322

[53]. حاتم الطائي : الديوان ، تحقيق عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني القاهرة ، 1975 ، ص 11.

[54].الخنساء : الديوان ،تحقيق كرم البستاني ، دار صادر بيروت 1963 ،ص 109.

[55].نفسه ، ص 68 .